الباب الخامس

فلسطين خلال عصر البرونز

٣٠٠٠-١٢٠٠ سنة ق.م

تعتبر مرحلة عصر البرونز من المراحل التاريخية الهامة، ذلك لما حدث خلالها من اتصال وتنقل وغزوات بالنسبة لسكان العالم القديم، ولوقوع فلسطين في هذه المرحلة بين حضارتين عظيمتين، مصر، وأرض الرافدين، وقد انعكس ذلك كله على الحياة والمجتمع بفلسطين.

ويقسم الباحثون عصر البرونز إلى ثلاثة عصور وهي كالتالي:

١-عصر البرونز المبكر ويمتد من ٣٠٠٠-٢١٠٠ سنة ق.م.

٢-عصر البرونز المتوسط المتأخر ويمتد من ٢١٠٠-١٦٠٠ سنة ق.م.

٣-عصر البرونز المتأخر ويمتد من ١٦٠٠-١٢٠٠ سنة ق.م.

وسأتحدث أولاً عن عصر البرونز المبكر.

مع بداية هذا العصر حدث انتشار للعرب داخل حدودهم وظهرت تنقلات بشكل واضح وملموس. حيث انضم لعرب فلسطين عرب قادمون من أرض الرافدين ومن جنوب بلاد العرب. وقد أطلق على العرب سكان الساحل السوري (سوريا-لبنان-فلسطين) الكنعانيون وعلى سكان المناطق الداخلية البعيدة عن الساحل "العموريون".

وأهم مدن الكنعانيين بفلسطين أريحو-بيت شان-شكيم-تل بيت مرسيم-عكو-يافا-عسقلان غزة-بئر السبع-عقرون-تل جاز-تل الفارعة-أورشليم-مجدو-بيت يراح.

وقد سموا بالكنعانيين نتيجة لاشتهارهم بالصبغة الأرجوانية الحمراء، التي كانوا يستخرجونها من أصداف بحرية تكثر على الساحل الكنعاني، واسمها أصداف الموركس وهم لم يتاجروا بالصبغة، بل تاجروا بما أنتجته نساؤهم من الثياب المطرزة والمصبوغة بالصبغة الأرجوانية.

وكان هؤلاء قبائل تنافست فيما بينها على الرغم من صلة القرابة والجنس بينهم، فدفعهم ذلك إلى بناء قلاع ضخمة، وأسوار عالية حول مدنهم كي تحمي كل قبيلة نفسها وتدعم حكمها، ولهذا انتشر نظام المدن المستقلة، تؤلف كل مدينة أو مدينتين مملكة، وكذلك الحال في سوريا ولبنان والأردن.

وقد راعوا في بناء مدنهم المحصنة أن تكون على تل مرتفع عن سطح الأرض التي حوله بشكل ملحوظ، وأن تكون الأرض منبسطة شيئاً حول التل بحيث يمكن رؤية الأعداء بسهولة إذا قدموا إلى قلعتهم التي يقيمون فوقها مدينتهم، كذلك يجب أن يكون التل بالقرب من مصدر ماء للشرب.

وقد بنوا مباني دنيوية ودينية وجنائزية. ولكن الاهتمام الكبير وجه إلى (الدفاعات) في جميع المدن، فمثلاً، بلغ سمك خربة كراك نحو ثمانية أمتار، كما عثر على مبنى محصن في خربة كراك، بلغ سمك أسواره نحو ثمانية أمتار، كما عثر المنقبون على مبنى مستطيل الشكل أطواله تراوح بين (٤٠-٣٠ متراً) وسمك جدران المباني عشرة أمتار. ووجد بالمبنى مدخل في جهته الشرقية، وقد بلغ عرضه نحو سبعة أمتار(١). وهذا المبنى يدل على استمرار نظام القبة خلال عصر البرونز وقد ظهر بفلسطين منذ ١٢٠٠٠ سنة ق.م، وما زال حتى الآن.

شاع طراز الأسوار العالية في كافة المدن، وهو في الغالب مكون من جزئين، سفلي منحدر من الجانبين، وذلك لكي يتحمل سمك الجدار، ويدعم به المبنى وعلوي قائم. وقد عثر على هذا الطراز في بيت شان ومجدو وتل جاز حيث بلغ سمك جدرانها نحو أربعة أمتار ونصف.

ولكن مدينة أريحا امتازت عن بقية المدن الفلسطينية بفن (الدفاعات) حيث اهتموا بها إلى حد كبير، وتتكون الدفاعات من خنادق، ثم منحدرات مائلة يتوجها من أعلى جدران شديدة الارتفاع وعريضة. وقد عثر في إحدى حفائر أريحا على خندق كثير الأجزاء على شكل ٧٧ ويحيط به منحدر طوله ١١ متراً، وارتفاعه ٧,٧٥ متراً وهي من الطوب. وداخل هذه الأسوار وجدت مبان بلغ سمك جدرانها

حجراً واحداً، وهي أحجار طرية ناعمة مصنوعة من الصلصال الأخضر، وقد وجدت في حالة غير جيدة، ويبدو من الحفائر أنها بنيت ثلاث مرات. والمباني المبكرة منها بنيت منفصلة بعضها عن بعض بحشوات ركامية سميكة، ولكن المباني المتأخرة منها قد تميزت بالحشوات الطينية والحجرية، والجدران القائمة من الطوب(٢).

تبلور الفكر الديني الأسطوري الكنعاني، في سورية عامة خلال هذه المرحلة ومنها فلسطين فابتكروا آلهة وبنوا لها معابد وأصبحوا يقدمون لها القرابين، ويقيمون لها مواسم سنوية. وأهم هذه الآلهة "عليان بعل–عناة–عشيرة أو عشتر–مت–ايل–حارون–شالم أو شليمو–داجون". والأسطورة الكنعانية بوجه عام هي تجسيد للمظاهر الطبيعية، حيث يصور الصراع بين المعبود بعل، إله الخضرة والأمطار، وبين المعبود مت إله الموت والحصاد، فيلتقي بعل مع مت، ويقضي مت على بعل، وفي هذه الفترة تكف الحياة عن الإنتاج والخصب. وتبحث عناة ومعها عشتر عن المعبود بعل أو "عليان بعل" إلى أن تعثر عناة على مت وتذبحه بسكين الحصاد، المنجل، وتذروه بالمذراة في حقول كنعان، فتعود الخضرة إليها وهكذا تتوالى العملية، فإذا ظهر عليان بعل، اختفى "مت".

وفي هذا حسب اعتقادهم استمرار لفصول السنة، وفي كل عام كانوا يحتفلون باليوم الذي مات فيه إله الخصب فيقيمون عيداً سنوياً مدته سبعة أيام، يقومون بطقوسهم، وأهمها رقصة المعابد، وهي الدبكة، التي يرقصون فيها على قرع الطبول ونغمات الناي. وهناك نصوص تشير إلى أنه كان للكنعانيين العرب، عيدان عيد في بداية الربيع، وعيد في شهر تموز.

وعندما حل الدين السماوي، تركوا الأساطير وآلهتها. ولكن أعياد الآلهة لم تمت أو تنته، بل تحولت إلى الأفراح الفلسطينية، فالفرح الفلسطيني أو العرس، يقام لمدة سبعة أيام بلياليها تتخلله رقصات الدبكة، وهي في الأصل رقصات المعابد الكنعانية.

وأسماء الآلهة الكنعانية ما زالت تطلق على قرانا ومدننا حتى الآن وهذه الأسماء هي: داجون أو دجاني–وعناه–وعشيرة–وعليان.

وهذا الحفظ التاريخي للعادات والأسماء الشخصية، وأسماء القرى والمدن هو دلالة على الاستمرارية والارتباط بتراث أجدادنا العرب الكنعانيين.

وقد أقاموا لآلهتهم الأسطورية معابد عديدة في مجدو وأريحا وبيت شان وغزة، ويعود تاريخها إلى مطلع الألف الثالث قبل الميلاد. وتحت جدران هذه المعابد عثر على جثث أطفال رضّع، وهذه العادة كنعانية. وداخل المعابد عثر على صناديق صنعت من الفخار أو الصلصال لخزن الغلال ومنها معبد أريحا وكذلك معبد في تل الدوير(٣).

وخير مثال للمعبد الكنعاني، هو معبد مدينة عاي. وهو مستطيل الشكل والباب الرئيسي في أحد أضلاعه المستطيلة. وقد بُني بحجارة غير منتظمة، سويت بالدق والنحت. (كما هو متبع حتى الآن في بناء القرى الجبلية والمدن مثل الخليل ونابلس ورام الله وبيت لحم والقدس) أما سقف المعبد فقد كان مقاماً على أعمدة خشبية قائمة منحوتة نحتاً جيداً.

والواقع أن جميع المعابد التي عثر عليها كانت مؤلفة من غرفة واحدة لها باب في إحدى أضلاعها الطويلة. ويعود ذلك إلى أن الاحتفالات الدينية كانت تقام في الهواء الطلق

أما المقابر الجنائزية، فتتمثل في المقابر العديدة التي عثر عليها المنقبون في أريحا وتل الفارعة وخربة كراك وغيرها من مدن عصر البرونز المبكر وهي نوعان:

الأول: مقابر جماعية، وهي قبور واسعة جداً، وتحتوي على مقابر فردية، بداخلها أوعية فخارية قرابين، وأواني طعام وشراب لاعتقادهم بالعالم الآخر.

الثاني: مقابر فردية وهي صغيرة مخصصة لفرد واحد، وأثاث القبر في الغالب يتكون من خنجر أو دبوس شعر وخرز وأواني طعام، وشراب، والجدير بالذكر أن هذين النوعين يستخدمان حتى الآن في مدن فلسطين وقراها.

وقد اهتموا بالصناعات الفخارية، وهي عدة أنواع:

١-الفخار ذو الكسوة الشريطية.

٢-الفخار ذو الحزم الزخرفية الملونة.

٣-فخار خربة كراك.

٤-الفخار ذو المقابض الظرفية.

ومعظم أنواع هذا الفخار ما زال يصنع حتى الآن بفلسطين ولا سيما في غزة وخان يونس والخليل. ومن هذه الأشكال (الإبريق-والزبدية وصحن أبو عشرة واللقان والبوشة والبقلوشة والزير).

كما عرفوا فن التطريز يؤكد هذا ما عثر عليه المنقبون من آثار الأنوال وأثقال الأنوال وفلكات الغزل في كل بيت من بيوت عصر البرونز المبكر.

وهكذا يتضح لنا عروبة فلسطين خلال عصر البرونز المبكر، تؤكدها الدلالات الأثرية، الملموسة والعادات والتقاليد والصناعات التطبيقية المتوارثة حتى الآن.

أهم المراجع:

(١) -عبد الرحمن المزين، رسالة الماجستير، الفن التشكيلي في فلسطين عبر التاريخ، ص ١١٤.

(٢) -From Archaeology،Jericho-by Kathleen M. Kenyon ، No.4،Vol. 20 .

October 1967 page 274.

(٣) Excavations at Jericho-1954- ، by Kathleen M. Kenyon. (Director, British School of Archaeology in Jerusalem, Page 14).